أم مارية الأثرية
د. آلاء ممدوح محمود

ليدبروا آياته

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)}

"التفسير الإجمالي"

بعد هذا التمهيد الذي يوطن النفوس، أتى الأمر بتحويل القبلة باعتباره أثر من آثار رحمة الله بالمؤمنين، التي اختتمت بها الآية السابقة، فلما كان النبي يردد نظره إلى السماء شوقا وانتظارا لنزول الوحي باستقبال الكعبة، أمره الله باستقبالها وليس الأمر خاصًا به بل لكل المؤمنين في كل مكان، ثم أتى بتسلية للمؤمنين حيث بين الله أن اليهود والنصارى يعلمون الحق لكنهم يعاندون؛ والله مطلع عليهم وسيجازيهم على إنكارهم.

هداية ... وتدبر

تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ	هذا ليس فيه سوء أدب مع الله تعالى أنه ينظر الى السماء، لأنه يترقب نزول الوحي وليس معناه أنه يرفع رأسه من أجل الدعاء -والله أعلم-. والمشروع أن الداعي إذا دعا فإنه ينظر إلى بطون كفيه في الدعاء، وأما في الصلاة فإنه ينظر إلى موضع سجوده، وإذا كان في التشهد فإنه ينظر إلى المُسبحة يُحركها يدعوا بها ويُلقي ببصره إليها.
	عرِف الله ما يُشغل عقلك وَقلبك يعلم مطلوباتك وَ حاجاتك فقط ادع الله بنظرةٍ عينٍ ملؤها الرجاء والطمع فيما عند الله، وإذا ضاقت بك الأرض تضرع لـ ربك ولن يُخيّب الله رجاءك، بل قد يحقق الله لك ماتمنيته وإن لم تدع الله به، وهذا من كمال العناية الربانية.

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا	النبي إنما يكون هواه تبعًا لمحاب الله فإن نفسه أشرف وأكمل من ذلك. وهنا فائدة: النفس إذا صار لها ارتياض بالطاعة وارتقت في درجات العبودية، حصلت لها ألوان الكمالات وصار هواها تبعًا لما يرضاه الله -تبارك وتعالى-.
	بقدر أشواقك للهداية يمنحك الله أنوارها.
وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ	قال الشيخ السعدي: إذا كان المعترض يعلم بخطئه فلا تبال بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبها، وكان ممكنا أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}.
	يعلمون أنه الحق: إذًا كان الواجب عليهم أن ينقادوا له طالما ظهرت لهم دلائله وأماراته ولا يبقى في حال من المُكابرة، فهؤلاء كانوا يقولون: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا [سورة البقرة:142] وهم يعلمون أنها حق وأنها من الله -تبارك وتعالى.
	في قوله "من ربهم": قال الشيخ العثيمين: لأن من أقر بربوبية الله سبحانه وتعالى لزم أن يقر بأحكامه، ويلتزم بها؛ لأن الرب له الملك المطلق يتصرف كيف يشاء؛ ولهذا أضاف الربوبية هنا إليهم: {من ربهم}؛ لإقامة الحجة عليهم حيث يعترفون بربوبيته.
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ	تمام مراقبة الله في كل وقت وحين وهذا فيه تسلية للمؤمن بأن الله مطلع على عمله سيجازيه عليه أتم الجزاء، وتهديد للكافر بأنه سيحاسب على عمله بالعذاب الشديد.

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)}

"التفسير الإجمالي"

ولما ذكر في الآية السابقة أن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق، وحتى لايظن ظان أنهم ءامنوا بعد أن تبين لهم الحق، بين الله لنبيه أنهم امتنعوا عن اتباع الحق استكبارا وجحودا لا لعدم وجود الآيات، بل الآيات واضحة متتابعة قاطعة؛ فلو أتى النبي لهم بكل آية لم يتبعوا قبلته عنادًا واستكبارًا، وما كان النبي أن يتبع قبلتهم لضلالهم، لأن قبلة أهل الكتاب ليست بوحي وتوقيف من الله بل هي اجتهاد منهم: فالنصارى: قبلتهم المشرق، وهم يقرون أن قبله المسيح قبلة بني إسرائيل، واليهود: قبلتهم التابوت واذا كانوا في بيت المقدس وضعوه على الصخرة.

ثم بين الله أنهم وان اتفقوا على رفض قبلتك فقلوبهم مختلفه فلن يتبع أحدهم قبلة الآخر، وهذا تسلية للنبي فقد كان صلى الله عليه وسلم من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، ثم بين الله لنبيه أنه اذا اتبع أهواءهم بعد كل هذا البيان الواضح فسيكون ظالم لنفسه، وحاشاه من ذلك وهذا تحذير للأمة من اتباع سبيلهم.

هداية .... وتدبر

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ	أن ما يصد اليهود عن الدخول في الإسلام وكذلك النصارى ليس هو الجهل به، ولكن القضية هي أنهم يعرفونه لكن يخشونه على مصالحهم وسلطانهم ومن ثَم فإنهم يكيدون له بأنواع الكيد، وبشتى الطرق والوسائل. سواء بطرق مُباشرة وبطرق غير مُباشرة منذ بعث الله نبيه، ونقر بأن منهم من لم يبلغه الإسلام بصورة صحيحة، لكن هذا لايعني جهلهم به. لكن هذا لا يعني أن لا تُقدم الدعوة فإن ذلك فيه من إقامة الحجة، ويفتح الله قلب من شاء، الهداية بيد الله ليست إليك. قد ترى إنسانًا في غاية العتو وتستبعد إيمانه وهدايته ثم يتحول بعد ذلك إلى شيء آخر يتحمس لهذا الدين وينصره نصرًا لربما لا تؤدي بعضه، فهذا أمر مُشاهد، الذين حاربوا الإسلام وحاربوا النبي كيف حولهم الإسلام إلى شيء آخر إلى أنصار، ومنهم سيف الله المسلول خالد بن الوليد وسُهيل بن عمرو العامري الذي أراد عمر أن يقلع ثنيتيه؛

	لأنه خطيب مفوه فلما أُسر في يوم بدر عمر عرض على النبي أن يخلع ثنيتيه بحيث يصبح ألثغ لا يعرف أن يخطب، فنهاه النبي عن هذا وقال: فعسى أن يقوم مقامًا تحمده عليه وفعلاً لما توفي النبي قام خطيبًا في قريش وقال: "أيها الناس! يا معشر قريش إنكم آخر من دخل في هذا الدين فلا تكونوا أول من يخرج منه" فثبتهم فثبتوا فلم ترتد قريش، بينما قبائل العرب ارتدت.
	هداية التوفيق بيد الله، وما على الإنسان إلا اتباع الأسباب. الرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على هداية الخلق؛ لأن قوله تعالى: {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية} دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرض الآيات، ويبين الحقائق؛ ولكن لا ينتفعون بها.
وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ	من عرف الله معرفة صحيحة عرف حقيقة دين الإسلام ولن يتحول عنه بحال من الأحوال، بل ينشرح صدره وتخالط بشاشته قلبه. ولذلك أسئلة هرقل لأبي سفيان لا يوجد فيها سؤال واحد عن طلب معجزة، فلما أجابه عنها، قال: إن كانت كما يقول فسيملك ما تحت قدمي هاتين، ولولا ما أنا فيه لأتيته حتى أغسل عن قدميه -عليه الصلاة والسلام- هذا هرقل لكنه شح بملكه من جملة الأسئلة التي وجهت لأبي سفيان من قِبل هرقل: هل يرتد أحد من أتباعه بعد دخوله في الإسلام سخطة له؟ فقال: لا، فقال: هكذا الإيمان إذا خالط القلوب. فالذين يرتدون من بعض المنتسبين إلى الإسلام الان لم يعرفوا الدين حقيقة ولم يحصل لهو اليقين. كما قال شيخ الإسلام:" كثير من المسلمين يرثون الإسلام وراثة"، فمثل هؤلاء لو حصل لهم تشكيك لحصل لهم زعزعة وخلخلة في هذا الإيمان فيكون قلبه محلاً قابلاً للتشكيك ، لكن من عرفه بقناعة فإنه لا يرجع عنه أبدًا -والله أعلم.
وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ	وجوب الانقياد للحق إذا ظهرت آياته؛ لأن هذه الآية سيقت مساق الذم؛ فدل هذا على وجوب اتباع الحق إذا تبينت الآيات وأن الإنسان لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد قيام الحجة فقد يتابع

	غيره جهلاً؛ فلا يؤاخذ به ـــ وإن كان يسمى ضالاً؛ لكنه ليس بظالم
	إنما قال: "أهواءهم "ولم يقل "دينهم "لأن ما هم عليه مجرد أهوية نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين، اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}.
	العلم حقيقة هو علم الشريعة؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءك من العلم} أتى بـ «أل» المفيدة للكمال؛ ولا شك أن العلم الكامل الذي هو محل الحمد والثناء هو العلم بالشريعة.
	العالم إذا انحرف فإن ذلك أعظم من انحراف غيره من سائر الناس. فأسوأ مثلين في كتاب الله هما للعالم المنحرف الذي لا يعمل بعلمه -ما ذكرهما الله: الأول الكلب، والثاني الحمار الكلب: ضربه الله مثلاً لرجل من بني إسرائيل أتاه الله آياته، وكان من علمائهم فانحرف، ولم يكن متبعاً لما علم، فحاد عنه وقيل هذا في رجل من رهبان اليهود يقال له: بلعام بن باعوراء في قوله: فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث [سورة الأعراف:175-176] والثاني: مثلاً ضربه الله لطائفة بكاملها، وهم اليهود الذين أعطاهم الله كتاباً وعلماً، وميزهم بهذا عن سائر الأمم، ومع ذلك لم يعملوا بكتابهم، فمثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، وعلى قدر المقام يكون الملام.
إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ.	وهو تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام فاحذر من اتباع الباطل بعد معرفة الحق: فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لو اتبع الباطل بعد معرفة الحق -وحاشاه- صار ظالما مع علو مرتبته، وكثرة حسناته فغيره من باب أولى وأحرى.
	التلطف في الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: {لمن الظالمين} ما قال «ستكون ظالم» ونظيره قوله تعالى: {عبس وتولى} فمن لايعرف تفسيرها لن يخطر بباله

أن المراد بها النبي.
ليس بين الله تعالى وأحد من الخلق محاباه، فكل من خالفه فهو ظالم. قال الله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى له: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين}

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

"التفسير الإجمالي"

وأتت التسلية للنبي فقال: وإن طعن اليهود في القبلة فما هو إلا واحد من طعنهم في الإسلام، فقد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمدا رسول الله، وأن ما جاء به، حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم ولا يشكون فيه ولا يمترون ولكن فريقا منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}، ولكن هذا الحق فلاتكن أنت وأمتك من الشاكين في أنه من ربك، وفي كونهم يكتمون.

هداية .... وتدبر

كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ	اختار الأبناء على النفس وعلى كل شيء: لأن الإنسان إذا ولد فإنه لا يعرف نفسه ولايعرف أبويه ولايعرف من حوله، فيحتاج إلى مدة بعد ذلك يُدرك ما حوله، ويتعرف على الأشياء، بينما الولد يعرفه أبوه منذ أن تقع عينه عليه.
	وجه ذكر الأبناء دون البنات: الأول: باعتبار أنهم أكثر حفاوة بالأبناء فيعرفه معرفة أدق لشدة حفاوته به. الثاني: لكثرة مُلازمتهم للأبناء ومُخالطتهم، فيسهل عليهم تمييزهم.

	الثالث: من باب التغليب، غلب الأبناء على البنات والمقصود الجميع.
وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ	الاحتراس في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: {وإن فريقاً منهم} ؛ لأن كتمان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتم الحق، فلابد للإنسان أن يكون دقيقًا في ألفاظه عادلًا حتى مع أعدائه، والإنصاف عزيز.
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ	فإن كان ذلك موجهًا للنبي وحاشاه أن يكون من المُمترين الشاكين، فهو خطاب إليه يتوجه إلى أمته، زيادة في التوبيخ والتقريع، لمن يشك في دين الله.
	الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ: عناية الله -تبارك وتعالى- بنبيه في تثبيته وتقوية عزمه وقلبه على لزوم الحق، وفيها عناية الله بهذه الأمة أن ما أنزل عليها حق من الله، وهذا يتطلب شكر الله على هذه النعمه، وفعل الطاعات وترك المحرمات.
	فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ: حث وحض يقتضي الثبات على هذا الأمر والبُعد عن الشك والامتراء، فهذا تأييد للنبي من ربه، وتأييد للمؤمنين.
	كل شيء خالف ما جاء عن الله -تبارك وتعالى- فهو باطل، وأهله من أهل الامتراء، قال تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} وما دام الحق من الله فإنه يجب أن يؤمن الإنسان به، وأن لا يلحقه في ذلك شك، ولا مرية.